التاريخ في سير أبطاله

ابراهام لنكولن

قصة الأحرار الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادي ! خذوا معاني العظمة في نفسها
الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم ... ...

— ٢٠ —

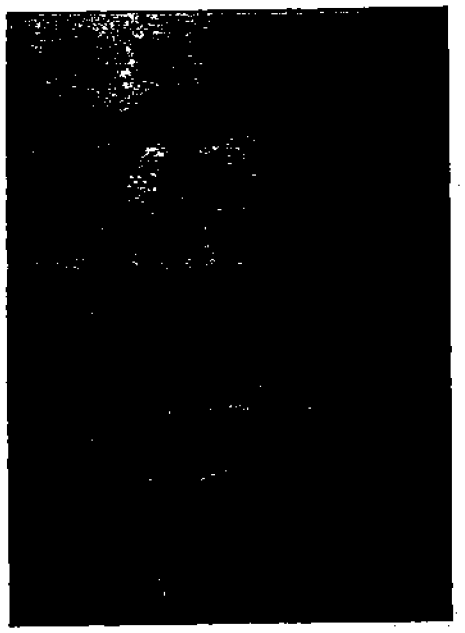

وجاء يوم الرحيل وآن لفتى الأحراج أن يؤدي رسالته ... آن لابن النجار أن يأخذ بيديه أزمة الحكم في قومه ؛ وتأهب ليواجه العاصفة ، وإنه ليراها اليوم عاصفة دونها تلك العواصف التي طالما هبت في الغابة هوجاء عاتية ، فزعزعت باسقات الدوح وشمتت كثيفات الألفاف وأفزعت الرجال والدواب ... إنه يراها اليوم عاصفة من عمل الانسان لا من عمل الطبيعة ، وما أهول مايفعل بنو الانسان حين ينسون إنسانيتهم فتستيقظ فيهم غرائزهم التي دبت فيهم أول ما دبوا على هذه الأرض ...

عول على الرحيل «الرجل القادم من الغرب» كما اعتاد أن يسميه أهل العاصمة وغيرهم من أهل المدن الشرقية السابقة في المدنية ... وتقدم الربان ليقود السفينة ودوى الأنواء في مسمعيه

ذهب مساء أليوم السالف ليوم رحيله إلى مقر عمله في المحاماة فجمع طائفة من الكتب والأوراق فلفها وربطها بيده وحملها معه ثم أوصى أن تظل الرقعة التي تحمل اسمه واسم زميله هرندن حيث هي على الباب قائلاً : إنه عائد — إن مد في أجله بعد انقضاء مدته في الرياسة — إلى عمله في المحاماة كأن لم يكن هناك شيء

وكان قد حزم متاعه وأعد كل شيء ليكون على أهبة إذا تنفس الصبح ، وأعد فيما أعد خطاباً يذيعه في الناس ساعة الاحتفال بتسلمه مقاليد الأمور ، ولقد احتفل لهذا الخطاب وكانت معانيه محتبسة في نفسه زمناً تهدر كالسيل وتجيش وتجتمع

وأسفر الصبح فركب وجماعة من أصدقائه مركبة أقلتهم إلى المحطة وقد تلاقى هناك نفر من أهل المدينة جاءوا يحيونه فما رآهم حتى وقف على سلم العربة وأطل عليهم وقد شحب لونه وتندت عيناه فقال : « أي أصدقائي ! لن يستطيع أي رجل لم يكن في مثل موقفي هذا أن يدرك ما يخالجني من الحزن لدى هذا الرحيل. إني مدين بكل شيء لهذا البلد ولكرم أهله ؛ ولقد لبثت فيه من عمري ربع قرن وتدرجت فيه من شباب إلى رجل مسن ... هنا ولد أبنائي وهنا دفن واحد منهم ؛ وهأنذا أرحل ولست أدري ما إذا كنت عائداً إليكم بعد اليوم ... أرحل وأمامي عمل هو أعظم من ذلك الذي ألقى على كاهل وشنجطون ، ولا نجاح لي ما لم أصب معونة الله الذي كان معه أبدا . . . ولئن ظفرت بهذه المعونة فلن أخيب . فلنأمل في حسن المنقلب مخلصين واثقين في الله الذي هو معي ومعكم والذي يكون منه الخير في كل مكان ، وإني حين أكلكم إلى عنايته كما آمل أن تكلوني إليها في صلواتكم أقرئكم وداعاً حارًّا ... »

وانطلق به القطار وقطرات المطر تنزل على رؤوسهم الحاسرة كأنها دموع منصبة من السماء ، ولكم التقت ساعتئذ تلك القطرات بما فاض من المآقي ... ورحل أبراهام ليعود بعد جهاد شديد وعراس فاذا هو شهيد تمزق الجراح جثته

وقضى في رحيله إلى العاصمة اثنى عشر يوما . وعلم الناس بهذا الرحيل ، فكانوا يلقونه في المدن التي يمر بها مرحبين ، وقد تلاقت جموعهم على نحو لم تشهده البلاد من قبل ، فما في الناس

إلا من ملكه حب الاستطلاع ؛ وكثير منهم كانت تدفعهم المحبة إلى هذا اللقاء

وكان قد عقد النية أن يظل صامتاً إلا ما يكون من تحية يرد بها على ما كان يلقاه من تحيات ؛ ولكن إصرار الناس فى كل مكان على أن يسمعوا حديثه جعله يتحلل مما اعتزم ؛ ثم إنه — دون أن يعرف التظاهر أو الغرور — رأى أن هذه كانت آخر فرصة يتحدث فيها إلى عامة الناس، وهم الذين يعول عليهم ويطمع أن يتخذ منهم ظهيراً فيما هو مقدم عليه من كفاح

وكانت له فى خطبه أثناء ذلك المسير خطة رشيدة ؛ فقليلاً ما كان يبرم أمراً أو يقطع فى المسائل القائمة برأى ؛ وإنما كان يشرح الأمور حتى تستبين، ثم يتساءل عن أوجه الصواب تاركا الناس يتدبرون حتى تأتيهم البينة ، تتمثل ذلك فى مثل قوله فى أندنا نابولس : « أى مواطنى، لست بمبرم أمراً، إنما أنا ألقى عليكم أسئلة لتتدبروها ... »

ولقد تكلم فى هذه المدينة فأشار إلى ما كان يجرى على الألسن يومئذ حول حق الاتحاد فى رد الولايات الخارجة عليه بالقوة ؛ ولقد عد أنصار الجنوب ذلك العمل عدواناً ؛ فتساءل الرئيس هل يكون فى الأمر عدوان إذا لجأت حكومة الاتحاد إلى المحافظة على ما تملك هناك من عقار ، أو إذا حافظت على سبل مواصلاتها وحرصت على جباية المال المقرر على البضائع الواردة ؟.

واستقبل إبراهام فى سنسناتى استقبالا لم تر هذه المدينة لأحد من قبل نظيراً له ؛ وتزاحم الناس عليه يريدون رؤيته وباتت المدينة فى مثل فرحة العيد ، ففيها الأنوار الوضاءة والأناشيد الصداحة والجموع النفيرة المستبشرة، وفيها ما هو أعلى من سمات العيد هذه ألا وهو الحب الصادق تفيض به القلوب

وهى بحدود كنتوكى وهى ولاية من ولايات العبيد تشتد فيها الدعوة إلى الانسحاب من الاتحاد فقال يوجه الكلام إلى أهلها مشيراً إلى ما اعتاد أن يخاطب به أهل الجنوب من قبل : « أى مواطنى أهل كنتوكى ، هل لى أن أدعوكم بمثل ما أدعو ؟ إنى فى موقفى الجديد ، لا أجد حادثاً ولا أحس ميلا يدعونى أن أغير كلمة من هذا ، فاذا لم تنته الأمور إلى الخير فثقوا أن الخطأ فى ذلك لا يكون خطئى ... »

وفى بتسبرج أفصح عن سروره أن كان استقباله هناك استقبالا شعبياً لا أثر للحزبية فيه ثم قال : « إذا لم تجتمع كلمتنا الآن لننجي سفينة الاتحاد القديمة الطيبة فى رحلتها هذه ، فلن يكون ثمت من فرصة بعدها لقيادتها إلى رحلة غيرها »

وفى محطة من المحطات الصغيرة وقف لنكولن بعد أن قرت حماسة المستقبلين فقال إنه يذكر أن خطاباً جاءه من فتاة هذه بلدتها تسأله فيه أن يطلق لحيته، ولقد فعل كما أشارت فهو ذو لحية اليوم كما يراه الناس ، ثم عبر عن رغبته فى رؤية تلك الفتاة إن كانت حاضرة ، فبرزت من الجموع تلك الفتاة ومشت على استحياء حتى وصلت إلى الرئيس ، فقبلها قبلة على جبينها ، والناس بذلك معجبون فرحون !

وفى ألبنى عاصمة ولاية نيويورك العظيمة كانت حفاوة الناس به شديدة ؛ وكذلك كان شأنه فى مدينة نيويورك التى سبق أن زارها لأول مرة من قبل ليخطب الناس فأصاب من النجاح ما سلفت الاشارة إليه

ووقف فى ترنتن على مقربة من ميادين القتال التى سالت فيها دماء الثورة غداة حرب الاستقلال ، فأخذه جلال الموقف وهزته روعة الذكرى فجرى لسانه بما اختلج فى نفسه قال « إنى لأرجو أن تسامحونى إذا ذكرت فى هذه المناسبة أنى فى أيام طفولتى وفى مستهل عهدى بالقراءة قد تناولت كتاباً صغيراً يدعى حياة وشنجطون تأليف ويمز ؛ وإنى أتذكر كل ما جاء فيه عن ميادين القتال وعن مواقف النضال من أجل الحريات فى هذه البلاد ، ولكن ما من حادثة تركت فى نفسى من أثر مثل ما تركه موقف النضال هنا فى ترنتن نيوجرسى » ... وبعد أن أشار إلى بعض الحوادث قال ... « وإنى لأذكر الآن أنى فكرت يومئذ ولما أزل غلاماً صغيراً أنه لابد أن يكون أمراً غير عادى ذلك الذى كافح من أجله هؤلاء الناس ؛ وإنى لأحس رغبة ملحة قوية أن هذا الذى كافحوا من أجله وشيئاً آخر هو أعظم من الاستقلال القومى : شيئاً ينطوى على وعد يوعد به الناس جميعاً فى هذا العالم فى كل ما هو آت من العصور ... أقول إنى شديد التطلع أن أرى الوحدة والدستور وحريات الناس بحيث تصبح أبدية وهى مقرونة بتلك الفكرة الأصلية التى من أجلها قام الكفاح. ولسوف

أكون جد سعيد إذا أصبحتُ الآلة المتواضعة في يد القوى العلى وأيدي هؤلاء الذين يكادون أن يكونوا شعبه المصطفى للعمل على أن يدوم ذلك الذى انبعث من أجله ذلكم النضال العظيم »

وكان الكتاب الذى يشير إليه لنكولن في هذه الذكرى هو بعينه ذلك الكتاب الذى أعاره إياه أحد معارفه والذى بللته قطرات المطر فأصابته ببعض العطب ، وتركت الصبى الفقير في حال شديدة من النم حتى لقد سار يحمله إلى صاحبه وهو شديد الحيرة ، فلما جاءه عرض عليه أن يعمل عنده بما يساوى ثمنه ... ذلك هو الكتاب الذى قرأ فيه النجار الغلام حياة وشنجطون العظيم ، ولم يكن يدور بخلده أنه سيجلس يوماً حيث كان يجلس وشنجطون ويسدى إلى بني قومه وإلى الانسانية جميعاً من صنيعه ما لو شهده ذلك البطل الكبير لطمع أن يكون ما تقدم بداه فوق ما قدمت

واستأنف الرئيس لنكولن ومن معه سيرهم إلى العاصمة حتى وصلوا فيلادليفيا ؛ وهناك علم أن فريقاً من بنى جنسه يأتمرون به ليقتلوه ! ... سمع إبراهام أن أمامه الخطر يوشك أن يحدق به ؛ وما كان إبراهام بدعا من العظماء ، فكم من أماثل خلوا من قبله لاقوا مثلما يلاقى اليوم من عنت ، ودبر لهم مثلما يدبر له ، فما وهنوا ولا انصرفوا عن وجهتهم حتى أدركوا الغاية أو أدركهم الموت ...

وارتاب لنكولن أول الأمر، فما كان يظن أن أحداً تحدثه نفسه بإتيان هذا العمل ، ولكن جاءه رسول من عند صديقه سيوارد ينبئه أن قائد الجيش حدثه أن هناك مكيدة تدبر له وأن عليه أن يحذر حتى لا يكون ضحية المتآمرين ... فلما سمع لنكولن هذا لم يعد يرتاب وبات على حذر وإن لم تأخذه خيفة

وكانت لفيلادليفيا وهى المدينة التى كتب الثوار فيها وثيقة الاستقلال وصاحوا صيحة الحرية منزلة عظيمة في نفسه وفى نفس كل أمريكى من أنصار الحرية ، وكان أبراهام قد وافق أن يخطب الناس فى تلك القاعة التاريخية التى ولدت في ساحتها الحرية، وكأنما تواقتت الذكريات لتزيد فى جلال الموقف فلقد تصادف أن كان ذلك اليوم هو عيد ميلاد الزعيم وشنجطون ؛ ورغب الناس أن يرفع العلم على رأس القاعة الزعيم لنكولن ... ووافق لنكولن على ذلك مغتبطاً مرحباً كما وافق أن يخطب الناس مساء ذلك اليوم فى مدينة هرسبرج وكانت تقع غير بعيد من فيلادليفيا ...

وخشى أصحاب أبراهام أن يفتك به المجرمون فى زحمة الناس فى ذلك اليوم المشهود فى أي من المدينتين وأشاروا عليه أن يقتصد فى الاتصال بالناس فيفوت على الغادرين قصدهم، ولكنه أبى إلا أن يفى بوعده ولو كان فى ذلك هلاكه ...

ورفع أبراهام العلم فى فيلادليفيا وكان فى ذلك موفقاً ، فانه صعد فى ثبات إلى حيث ينتصب العمود الذى يثبت فيه العلم فشد الحبل فانبسط العلم ورف ، وخفق الناس واستبشروا وهم ساعتئذ جموع خلفها جموع إلى آخر ما يذهب فيهم البصر ... وكلهم يحيون الرئيس فى حماسة وغبطة

وخطب فى القاعة التاريخية فأفصح عن شىء من سياسته على خلاف ما جرى عليه فى خطبه السالفة ؛ قال : « كثيراً ما سألت نفسى ما ذلك المبدأ أو ما تلك الفكرة التى حفظت الاتحاد هذا الزمن الطويل ؛ إنها لم تكن مجرد انفصال المستعمرات عن الأرض الأصلية ، ولكنها كانت تلك العاطفة التى منحت الحرية لا لهذه الأمة فحسب ، بل للناس جميعاً فى كل عصر مقبل كما أرجو ؛ إنها كانت تلك التى بشرت أنه متى حان الوقت المناسب رفع العبء عن كواهل الناس جميعاً ومنح كل امرئ فرصة على قدر ما يمنح أخوه ... تلك هى العاطفة التى انطوى عليها إعلان الاستقلال. والآن أسائلكم يا أصدقائى هل يتسنى خلاص هذه البلاد على هذا الأساس ؟ ... إذا أمكن ذلك فإنى إن استطعت أن أساعد على خلاصها أعد نفسى من أسعد الناس فى هذا العالم . أما إن كان من المستحيل خلاصها إلا أن يضحى هذا المبدأ ، فإنى أفضل أن أغتال في هذا المكان على أن أتخلى به . والآن أرى من شواهد الحال القائمة أنه ليس ثمة من ضرورة إلى سفك الدماء والحرب . ليست ثمة ضرورة إليها ؛ وإنى لا أميل إلى اتجاه كهذا؛ وأضيف إلى ذلك أنه لن تقوم حرب إلا إذا أجبرت الحكومة عليها ؛ ولن تلجأ الحكومة إلى القوة إلا إذا أشهر فى وجهها سلاح القوة ... أى أصدقائى ! هذه كلمات جاءت على غير ترتيب سابق ألبتة؛ فأنا لم أكن أتوقع قبل وصولى أن أدعى إلى الكلام هنا ؛ لم أكن أحسب إلا أنى سأرفع العلم فحسب ؛ وعلى ذلك

فربما كانت كلمتي هذه خلواً من الحرص ولكني لم أقل إلا ما أريد أن أعيش به وما أريد — إذا كانت تلك مشيئة الله — أن أموت به ... »

وذهب لنكولن في المساء إلى هرمسبرج وخطب الناس كما وعد ؛ وكانت بلتيمور هي المدينة التي اعتزم المجرمون أن يقتلوه فيها وهي في طريقه إلى العاصمة ؛ فعاد لنكولن إلى فيلادلفيا قبل الموعد المضروب ، وركب ومن معه قطاراً عادياً كان قد استبق بناء على إشارة قادمة ليحمل «طرداً» هاماً إلى وشنجطون وترك لنكولن القطار الخاص الذي كان معداً لسفره ، فر بلتيمور قبل الموعد المعروف فقوت بذلك على الكائدين كيدهم فكانوا هم المكيدين ...

وفي الساعة السادسة من صباح اليوم التالي وصل (الرجل القادم من الغرب) ومن معه إلى وشنجطون ، فدخل المدينة على حين غفلة من أهلها ؛ اللهم خلا سيوارد ورجل آخر كانا على علم بمقدمه فلقياه ... وركب لنكولن إلى فندق لينتظر بضعة أيام حتى يحتفل بتسليمه أزمة الحكم ... دخل الزعيم لنكولن عاصمة البلاد في مثل تلك الساعة المبكرة وفي مثل تلك الحال المتواضعة ليجلس في كرسي الرياسة الذي جلس فيه من قبل وشنجطون، دخل ليحمل العبء وليبدأ في حياته مرحلة من الجهاد والجلاد دونها كل ما سلف من جهاد وجلاد ...

« يتبع »

الخفيف

هذه داري وهذا وطني

ولكن أين أحبابي ؟ !

(بقية المنشور على صفحة ١٣٢٢)

لك خلاص من ظلماتك ، فأين الخلاص من ظلماتي ؟

ستمضي لشأنك وتتركني يا ليل

إن الظلمات تقتل شبابي وتحيي شبابك

إن الظلمات تصيّرك أقوى وأعنف، وتصيرني أرقّ وألطف، والرقة واللطف من بواكير الفناء

أيها الليل!

لقد عرفت قسوتك في بلاد كثيرة من الشرق والغرب ، وما كنت أعرف أنك أقسى ما تكون في داري وفي وطني

أما بعد فأنا أعترف أن قلبي يستحق التأديب

كنت أصم أذني عمن يسألون عني في باريس وفي بغداد لأفرغ لما سموه الواجب ، فليتني أجبت الدعوة في باريس وفي بغداد لآخذ ذخيرتي من الحب والعطف !

ليتني صنعت وصنعت ، ولكن هيهات فقد فات ما فات !

أيها الليل في مصر الجديدة

أنا على كل حال رفيقك وأخوك

وستمضي الأعوام والدهور ، ولا تعرف أصدق مني يا ليل

سيذكرني الناسون يوم تشوكهم

شمائلُ من بعض الخلائق سُودُ

سيذكرني الناسون حين تروعهم

صنائع من ذكرى هواىَ شهود

فوالله ما أسلمت عهدي لمدرةٍ

ولا شاب نفسي في الغرام جحود

ولا شهد الناسون مني جناية

على الحب إلا أنني يقال شهيد

زكي مبارك